الدخول من سلم الخدم

حينما لامست عيناى شوارع نيويورك لأول مرة كان أول شعور لى أشبه بالصدمة لهذه العملقة والضخامة فى ناطحات السحاب، وهذه الكتل المعمارية الهائلة من الحديد والخرسانة، وهذه الغابة الهائلة من الأسمنت والصلب.. وكان واضحا أن القيمة التى تسيطر على عقول هؤلاء الناس هى الضخامة والعملقة والقوة، كبديل عن الرفاهة واللطف والجمال والرقة.. ونفس الشىء فى الموسيقى النحاسية الصاخبة، وأصوات الديسكو التى تصك الآذان، والتى انتشرت فى كل مرقص وبار بديلا من الوتريات الناعمة المرهفة، والتانجوهات الحالمة التى تعودناها.. وفى الميناء البوارج وحاملات الطائرات وأوناش ترفع ألوف الأطنان كالمردة.. وشركات كالحيتان تتعامل فى ألوف الملايين من الدولارات، وفى التلفزيون أخبار تدوى منبئة بوصول السفينة الفضائية إلى زحل ومشاهد مفصلة لهذا الكوكب البعيد الذى يدور على بعد مليون ميل..

كان من الواضح أنى أشاهد ملامح حضارة مادية كاملة بكل

مقوماتها.. حضارة تؤثر الضخامة على الجمال، وتفضل المكسب على القيمة، وتعلى العقل على الوجدان، وتعلى العلم على الحدس، وتعلى التجربة على الإيمان، وتعشق المباشرة الحسية لكل اللذاذات.. حضارة تلهث خلف القوة والمتعة واللحظة.

وقد أصابت هذه الروح بعدواها كل المدن الكبرى.. وما نراه فى لندن وباريس وبرلين وهامبورج ومدريد وجنوة والبندقية هى نفحات من هذه الروح المادية المكتسحة.. بل فى القاهرة.. بل موسكو وبكين وطوكيو.. بل العالم كله قد غلبت عليه هذه الحضارة المادية بطقوسها وسدنتها وآلهتها وشريعتها ومنطقها.. بل داخل كل نفس من نفوسنا الآن منطقة نفوذ ومجال انجذاب لهذا النمط من الحياة المادية الاستمتاعية اللاهثة.

والفيلم السينمائى، والمسرحية، والتمثيلية التليفزيونية، والأغنية، والصحيفة، والمجلة، أصبحت جميعها نشرات دورية تروج لهذا اللهاث المادى.

المال والجنس والآلة والقوة تحكم الآن فى صرامة على جميع مداخل التفكير..

وكما كانت الدنيا أيام بابل وآشور من ألوف السنين فراشًا ممدودًا للبذخ والمتع الفارسية، يعود التاريخ فيدخل فى دورة أخرى مماثلة، لكن على مستوى أعلى هذه المرة، فالحياة الآن مسلحة بكل ما يمكن أن يهبه العلم والالكترونيات من متع

مضاعفة، ولذاذات سهلة، وقوى جهنمية مدمرة.

وفى المتاحف التى زرتها توقفت طويلا أمام اللوحات الفنية الحديثة، وقطع النحت المعاصرة، وبعضها مجرد شخبطة بالألوان، أو زلطة مقلوبة على رأسها، أو مجموعة أسياخ من الحديد الزخرفى، وأحيانًا مجرد كومة من الحديد الصدئ، أو صفيحة زبالة..

سمة أخرى من سمات هذه الحضارة المادية التى أعلنت الثورة على القيم الخلقية والدينية نراها هنا تعلن الثورة على القيم الجمالية، وتحاول إعلاء التنافر على الاتساق، والفوضى على النظام، فتكسر التناظر، وتحطم المألوف، وتصدم العين بالجديد حتى ولو كان قبيحًا.. واليهودى بيكاسو - ولا شك كان هو البادئ بهذه الثورة، ولكن ما لبث أن تجمعت خلفه قبيلة من المريدين والأتباع من كافة مدارس الرسم الجديدة فى كل بلد.

ألم يفعل كارل ماركس نفس الشىء فى الفلسفة والسياسة.. فيعلى الصراع على التوافق، والتناقض على المصالحة، والحرب الطبقية على التفاهم، والحقد على التواد والتكافل الاجتماعى؟

ألم يبارك تروتسكى الحقد باعتباره الرافعة المقدسة التى سوف تقلب التاريخ؟

ألم يكن الجميع كتيبة متآلفة صنعت لنا بأفكارها هذا العصر المادى المضطرب الذى نعيشه، والذى نسير فيه على غير هدى،

أو على هدي من أفكار جاهزة صنعت لنا صنعًا، وغسلت بها أدمغتنا غسلاً بفعل كتب وإذاعات ونشرات وروايات وأفلام ومتاحف وأغانٍ؟

ثم ماذا؟!

ثم إلى أين يدفع هذا القطيع البشرى؟

إن الإكثار من الحلوى يسوس الأسنان، والإسراف فى الأكل يورث البدانة والترهل، والعكوف على الشهوات يورث الخمول.. والترف يربى القسوة والبلادة..

هذا فى الأفراد..

أما فى المجتمعات فإن تراجع القيم الخلقية والدينية، وسيادة مبدأ المصلحة والمكسب، وغلبة مبدأ القوة، وتحكم الهوى فى الناس.. يؤدى إلى تفكك العلاقات الاجتماعية.. فالقيم هى التى تربط الأفراد بعضهم ببعض، بينما المصالح تفرقهم، والأهواء تشتتهم.

والقيم هى التى تخلق الإجماع والاتفاق ووحدة الهدف ومسيرة التقدم.

وحينما تضعف القيم ولا تعود قادرة على تجميع الناس.. ينفرط عقدهم.. تتفكك الأسرة.. وتنهار أسس كل أنواع العقود الاجتماعية التى تقوم عليها عمارة المجتمع والحضارة، ولا يبقى إلا

التخويف والإرهاب والقوة كوسيلة وحيدة للإمساك بالكيان الاجتماعى ولفرض النظام وحماية العقود.. فتلجأ الحكومات إلى العنف والقهر وقوانين الطوارئ وتلجأ الأطراف المقابلة إلى الإرهاب وتفجير القنابل، وخطف الطائرات، واعتقال الرهائن، وتصبح الصدارة للطغاة والجبارين، والبلطجية والإرهابيين (ألا نلاحظ حولنا بداية هذه التحولات بالفعل)

ثم ماذا بعد؟!

تحدث الفوضى، وينعدم الأمن، وتتعاقب الأزمات الاقتصادية ودورات الكساد على الناس، ويسود الضنك والكلال والإجهاد..

وترى الناس بين غارق فى المتع الحسية إلى أذنيه، سكران لا يدرى، أو منسحب معتزل ساخط وعاجز عن مواجهة الطوفان.

لقد بدأ العد التنازلى بالفعل.. بدأ السير نحو هذا الطريق المنحدر، وبدأنا نلاحظ هذه الشواهد تحدث متفرقة هنا وهناك تنذر بقرب النهاية.

ولكننا مازلنا نتبع فى حضارتنا وفى ثقافتنا وفى مجلاتنا وفى أفلامنا وأغانينا وفى موسيقانا الأوامر والتعليمات التى تأتينا من العواصم الكبرى: من لندن، وباريس، ونيويورك، وموسكو.. ومازلنا نتشرب هذه الحضارة المادية مبهورين، ونحذو حذوها، ونترسم خطاها، ونحاول تقليدها.

نحاول أن نجعل من القاهرة نسخة من لندن..

نقلد سلوكيات الخواجات، وللأسف نقلد فقط السلبيات (الظواهر الانحلالية فى الفن والسلوك) بشغف أكثر وشوق أكبر من تقليد الإيجابيات (العلم والتكنولوچيا).

وبهذا التقليد الناقص الذى نظن أننا بفضله سوف نلحق بقطار التقدم، للأسف لن نلحق إلا بعربة «الترسو» أو البضاعة، أو نتعلق بضلفة من الباب، أو سلم الخدم.

ثم لا ندرك أن القطار كله يسير إلى منحدر.. فنهلل فرحين أننا أصبحنا مثل الخواجات، وننسى أننا لنا عطاؤنا الخاص الذى يمكن أن نتفوق فيه ونسبق فيه.. وأننا بالتقليد نخسر أنفسنا.. ثم لا نصبح خواجات، ثم لا نلحق بهم فى شىء يذكر، فقد دخلنا حلبة السباق متأخرين مائة عام، ثم لن نشاركهم انتصارًا، بل كارثة وشيكة سوف تأتى على بنيانهم من القواعد.

والتسويس فى الحضارة المادية ليس سببه العلم أو الإلكترونيات أو الذرة أو سفن الفضاء، فالعلم برىء، وهو أداة طيعة فى خدمة صاحبها، إن أرادها للخير قدمت له أقصى النفع، وإن أرادها للشر أوردته المهالك.. ولكن التسويس سببه ضعف العقيدة الإيمانية أو انعدامها، فلا إيمان عندهم إلا باللحظة.. وفكرة الرب العادل والميزان والحساب والبعث والآخرة مسائل غير مطروحة فى أذهانهم.. أو مرفوضة تمامًا ولا اعتبار لها.. وما

دام لا وجود إلا للحظة الحاضرة، ولا حياة إلا حياتنا الدنيا هذه، فلنعتصرها لذة وعملاً ومتعة، ولنجمع فيها أقصى ما نستطيع من قوة ومال ونفوذ وسلطان، فلا شيء بعدها.. وإن اعترضتهم القيم والاعتبارات الخلقية فلا مانع عندهم من المساومة عليها، فكل شيء في الحضارة المادية قابل للتفاوض، وكل شيء نسبي، ولا حقيقة مطلقة، وهذه هي الفلسفة «العلمانية» من كلمة العالم وليس من كلمة العلم ومعناها الدنيوية..

ولكنا هنا في بلادنا نفكر بطريقة أخرى، ولنا منطلقات حياتية مختلفة.. فالرب العادل والميزان والحساب والبعث والآخرة حقائق موجودة في داخل الأهرامات وفي مقابر الأجداد من ألوف السنين، والتوحيد حقيقة نادى بها ملوك كأخناتون، وأنبياء كإدريس وموسى وعيسى ومحمد، عليهم الصلاة والسلام.. وهي في دمنا وإن ابتعدنا عنها سلوكيًّا.. وهي قارب نجاة لنا ولمن شاء من أهل الغرب وأهل الشرق في الطوفان القادم، وهي لا تمنعنا من الأخذ بأسباب العلم والإلكترونيات والذرة والفضاء، ولكنها تمنعنا من سلوكية التهالك والتهافت والتقاتل والتدافع على اللحظة، وعلى جمع المال، وانتهاب الملذات، وتسول السلطة، واغتنام النفوذ والجرى وراء القوة لهدف التحكم في الناس، وهي تمنعنا من المساومة على القيم، وتؤكد لنا أن الجمال حقيقة لا تجوز الثورة عليها بهدف القبح ولمجرد الإتيان بالبدع، وكذلك الخير حقيقة لا يجوز التنازل فيها بهدف الربح ومكاسب اللحظة.

ونحن إن تنازلنا عن هذه القيم العالية والمبادئ الرفيعة من أجل أى مكسب أو أى تقليد فإنما نتنازل عن أنفسنا وعن هويتنا وعن مقعدنا الوحيد الآمن فى سفينة نوح فى الطوفان الوشيك القادم فى الطريق.

ونحن نستطيع أن نقدم لإخواننا فى الشرق وفى الغرب – من أهل الحضارة المادية – شيئًا جديدًا وهامًّا بدلا من أن نتسول نفاياتهم ونقلد نقائصهم.. وديننا لا يمنعنا من أن نأخذ منهم العلم والصناعة والتكنولوچيا وفنون الإدارة، ولكن يمنعنا أن نأخذ منهم التبذل والتحلل، ومباذل الرقص والشرب والتفسخ الجنسى.

وصحيح أن فاترينة الحضارة المادية مبهرة تخلب العين، وتخطف البصر بمنتجاتها وإنجازاتها، ولكن لا يصح أن تخطف منا الضمير والبصيرة ونور القلب الذى خصنا الله به نحن أهل التوحيد.

ويجب أن نتذكر دائمًا أن عندنا شيئًا عظيمًا.

ويجب ألا ننسى لحظة أننا انفردنا بعلم ربانى ونور داخلى أكثر إبهارًا، وأننا لو لزمنا هذا العلم وسلكنا على هدى هذا النور فسوف نتفوق ونفوز دنيا وآخرة.. ويجب أن ندرك من نحن.. وماذا نمتلك.. وقيمة ما نمتلك.. وقيمة ميراثنا بالقياس إلى ميراثهم ولا تغرنا الظواهر.. ولا يخطفنا البريق.

أما الذين تعلقت همتهم باللحظة وقضوا حياتهم جريًا ولهاثًا

خلفها، وانقطعت همتهم عن إدراك ما وراءها فهم فى فقر مهما جمعوا، وفى ظمأ مهما ارتووا.

كلما أترعوا شهواتهم ازدادت سعارًا.. لا تعرف نفوسهم سكينة، فهم بين جوع يذهب وجوع يتجدد.. وفى نشاط أكّال لا يثمر راحة.

هم من الخارج بهرج وزخرف وبريق، ومن الداخل خواء.

وكذلك الحضارة المادية حينما توغل فى ماديتها تتحول إلى ضجيج وآلات وأضواء ومحافل ساهرة ومناظر باهرة.. ولكن لا روح ولا قيم باقية.

ثم الموت.. ولا شىء بعد.. لا حساب ولا ثواب.. هذا قولهم.. فلتفعل ما يحلو لك.. فالدنيا كلها ملكك.. هذا شعارهم.. وظنهم..

وما أبعد الفارق بين الحياتين.. فبينهما ما بين الأرض والسماء.

* * *

ونحن فى تخلفنا الحالى وأزماتنا الاقتصادية ندرك هذه الهوة التى ننحدر إليها، وندرك ما نخسره بالتقليد والتبعية، ونحاول أن نستقل بشخصيتنا وحضارتنا، ونرفع شعارات العودة إلى الأصالة.. والحل الإسلامى.. والحكم الإسلامى.. وتطبيق الشريعة.. ولكننا نختلف ونتصارع، وننقسم إلى عشرات الفرق، وعشرات التيارات بين أقصى اليمين وأقصى اليسار، وبين رفض

تام للموجود ومحاولة الانقلاب عليه (جماعات التكفير والهجرة والجهاد) وبين الاكتفاء بالدعوة إلى مكارم الأخلاق، ورياضة النفس على السلوك الأمثل، والانقطاع للعبادة، وترك ما لقيصر لقيصر (الطرق الصوفية واليسار العلمانى الذى يرى أن الدين مكانه القلب والمسجد، ولا يصح أن يزاول نشاطه فى الشارع السياسى).

وأنا لا أتفق مع الاثنين، ولا أرى أن الانقلاب العسكرى يمكن أن يصنع إيمانًا، ولا أرى أن الفضائل يمكن أن تزرع فى أربع وعشرين ساعة بمرسوم وزارى، ولا أرى الثورة الدموية فاعلة إلا خرابًا وظلمًا تضيفه إلى الخراب الموجود.. والخومينى مثال قريب.. كما لا أتفق مع الانسحاب الصوفى إلى قوقعة النفس ومزاولة الخلاص والنجاة بالتسابيح فى الخلوة، والدعوات الصالحة فى غار. وإنما أنا من أهل الوسط العدل، الذى يطلب الإصلاح بالتعامل مع الواقع الموجود وليس بالثورة عليه.. التعامل من خلال القنوات الشرعية المتاحة.. من خلال الصحيفة والمجلة والكتاب والإذاعة والتلفزيون.. ومن خلال قنوات الشورى.. ومن خلال الأحزاب.. ومن خلال خلق رأى عام له صوت، وله ضغط مؤثر يصل إلى الكمال التشريعى بالتدريج، وعلى مراحل.

ونحن أمام حالة «شيوع البلوى» الموجودة لا نختلف كثيرًا عن حالة شيوع الخمر فى الجاهلية التى أخرج الله الناس منها

بالتدريج التشريعى، ولا أحد منا يمكن أن يدعى أنه أقوى من الله.. فهو سبحانه أحكم الحاكمين، ولم ينزل الله بسيف التحريم على الخمر دفعة واحدة، وإنما أنزل به على مراحل..

ولا يمكن إخراج الناس من مألوفاتهم بقرار ثورى يأتى به بكباشى من فوق دبابة.. فهذه أمور جربناها وهوت بنا إلى الحضيض الاقتصادى والأخلاقى الذى نعيش فيه منذ الستينيات.

والدين ليس شعارات وهتافات، وإنما هو اقتناع وتفاعل قلبى، وتفاهم وتعاون وتطبع، وهو لا يصنع بالقهر ولا بالعنف، وإنما بالتربية والتوعية.

والاجتهاد فى الفهم مطلوب حتى مع وجود نص.. فالنص بقطع يد السارق لم يمنع عمر بن الخطاب من إعفاء يد السارق فى المجاعة، وكذلك فعل صاحب المقام الأكبر الرسول عليه الصلاة والسلام، وهو الأمين على الشريعة، حينما أعفى اليد من القطع فى حالات الحرب، وكلاهما أعمل عقله فى فهم النص، ولم يكن فيما فعلاه تعطيل للنص، بل فهم مستنير له.

وحسن الفهم عن الله هى السُّنَّةُ الأَوْلَى بالاتباع من الشكليات، ولأن نأخذ عن النبى عليه الصلاة والسلام أمانته وشجاعته وعفته وسماحته وصدقه لأفضل من أن نكتفى بأن نأخذ عنه لحيته وجلبابه.. وتعطيل العقل بأى عذر هو كارثة بكل المقاييس..

وأى قول بتعطيل العقل هو قضاء تام على الدعوة وتعطيل للحيوية الباطنة فى الإسلام، وللخاصية التى ينفرد بها فى التعامل مع الواقع المتغير.

والمشكلة كبيرة.. ولا يمكن أن تحل بإطلاق رصاصة.. ولكن بالتعاون والفهم من جميع الأطراف..

هذا إذا أردنا أن نخرج من بدروم الخدم الذى نحن فيه.